

الطفولة والصبا

عند ما يقرب الإنسان من نهاية العمر يشرع ذهنه في سرد الذكريات التي حفلت بها بدايته . وأجدني في الوقت الحاضر أدنو من عتبة الستين ، وأسأل وأتساءل عن الأصل والأرومة وعن العوامل الوراثية والبيئية التي تكونت منها هذه الشخصية التي قد تزول بعد بضع سنوات ، إذا اعتبرنا متوسط الأعمار في مصر ، أو قد يمتد بها العمر عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى ، وهو متوسط السن في عائلتنا .

وقد رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلبسه شيء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربي لأن إرهابات القرن العشرين كانت تبدو واضحة في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا أما في مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التي سبقتة بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . ومازلنا في سنة ١٩٤٦ نرى هذا التراث على أكتفه في طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضا ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشيء الطبيعي لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى طابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من الغزبة إلى منزلنا بالزقازيق كي تحلب ثم تعود . وضربت من أختي لأنني ناديتها باسمها من الشارع ، إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت في الزقازيق حين لم تكن تعرف المصاييح ، حتى إننا كنا حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوسا » نسترشده في ظلام الشوارع . ورأيت أحد المجرمين يشنق في ميدان الزقازيق ، وبقيت نحو طام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى سيد أهله . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق

الظنلة والصابا

يعنق أمى ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم . وكان من المؤلف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار «قوراء» فى الزقازيق تتسع لخمسة لجان أو بغل فى فناءها الذى يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتوميلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عينى فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً . وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فانها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط . وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب «العنى» ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر ؛ فان عمدة البياضية لا يزال من عائلة العنى . ولكن ليس هناك أى تعارف بين أعياء البياضية وأعياء الشرقية . ولم تزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى نحسه فى عصرنا ، وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالهائم السود مع أزياء أخرى يحتصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تقلبهم وارتدادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزي واتخذوا الزي المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون ، وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصيل لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقر فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتي في حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين لامة من الأقباط والاروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد في كل شيء . ويتعممون بالشيلاان الكشميري الملونة والغالية في الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائي لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى العالم الأزهرى الجبرتي . ويبدو أن الأقباط والاروام عادوا فتوسلوا بالقبائل الفرنسيين والاطالين إلى مجد على فالنقى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التي كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم في قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة . وجميع أفراد عائلتنا يعدون بحسب الترتيب المزاجى لكركتشمير، انطوائيين . يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحياناً يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى إنى أعرف أشخاصاً فى أسرة العنى عاشوا كأهم كانوا رهباناً يتوقفون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط ، وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادراً .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف ازواء على ماورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الازواء بعد ذلك فضيلتى ورضيلتى معاً . فقد كانت تمضى على السنة والسنتان لأعرف فيها القعود على القهوة . كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى . ومازلت أفرّ من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فأنى أسئ

الطفولة والعبا

الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدي في انفراد ، والثانية محتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعي في حياتي بعد ذلك ولكنني أعزو إلى الظروف التي هذا الاعتكاف في مكتبتى ، وهو الذى بسط لي آفاقاً واسعة وأمتعتني بجنات نضرة وعرس في نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التي تمثل في ذهني من أيام الطفولة ، صورة أمي وهي قاعدة إلى فراشي تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى أزمى الفراش نحو عام أو عامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا ؛ لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولى مسلم يدعى أباعمر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشتري الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على طاقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلعبنى وأنا مريض . وبقي أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطنى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده . ولم يتركنا الا بعد أن اشترى فدانا وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

وأدخلت الكتاب ، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق ، وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات . فلما حفظت « نعظملك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقتى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنبها .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا بتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

الطفولة والصبا

ولا يستطيع مصري التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الاميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات ، وكان كل ما يستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطية الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة . وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيحاءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يجرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يثب علينا بأساليب فى الضغط والعريضة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقية . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا وردّه تلميذ آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فاذا تطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل فى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكننا كنا نهناً بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لاتزال تبرز فى ذهنى كأجل وأنصح ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لاتتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال طالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلفت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدي وشرعت أهبط . ولكنى ماكدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم ولو

كنت أدركت خلّيت عن الفرخين ونزلت في سلام . ولكنني لفرط الألم والرعب بقيت في غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحمس طريق الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عيني فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان وهي تصرخ بي وتسب وتهاثر بعد أن أثخنتني وضربت رأسي ووجهي بالدماء .

ومرة أخرى في إحدى جولاتي سمعت خشخشة في ديس عند حرف القناة . فلما اقتربت وجدت ججراً وظننت أنني قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدي قبضت على جسم طري ، فجررته فاذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباحه ، والأنسة الديمقراطية التي كانت تنعقد بيني وبين الصبيان الذين كانوا في سنى ، والليالي التي كنا نحياها في السمر أو اللعب ، والاستحمام في النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا في الصبا ، وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإني أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلي وقلبي جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترسم في مخيلتي وهي في حرج الولادة تن وتلهت وتلتفت ، وجميعنا حولها في عطف تتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنخ ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية في سنة ١٩٠٣ . ولا أعرف بالضبط كم كان عمري . لأن إثبات الميلاد لم يكن في أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنني ولدت حوالي ١٨٨٨ . ودخلت السنة الأولى في المدرسة الأميرية وأنا في الحادية عشرة وهي السن التي نال فيها ابني بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن في الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ما أقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً في الريف من اختبارات في الحياة ، أجد أن الريف قد علمني أكثر وأكسبني من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذي جعلني أحس سائر

حياتي أن الأرض هي الام . وأكاد وأنا في الريف أشعر ، مثلما شعر ذلك الراهب في قصة «الإخوة كرامازوف» لدستويشسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، أنى أحس مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هي المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الانكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الري التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لا إنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتيمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فانى أذكر أنه كان لعيد الميلاد رجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام وتتهياً بالملابس والنقل والذبايح . وكانت تقعد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت « العذراء » بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها « ماريولوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبث كنيستنا ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

